المحاضرة 4 **مدرسة "الديوان"**

الرؤية والأهداف: كان كتاب الديوان ذا أثر كبير جدًّا في الحياة الأدبية والنقدية، وأحدث دويًّا هائلًا عندما صدر، وقد جاء في مقدمة الديوان ما يرسم المنهج، الذي آمن به الرواد الثلاثة، وأرادوا أن يطبقوه، فقد جاء في المقدمة: "بسم الله نبتدئ وبعد، فإن كان للسكوت عن الخوض في أحاديث الأدب داع، فقد زال ذلك الداعي اليوم، وقد تجددت دواع للكتابة في أصوله وفنونه، أخصها الأمل في تقدمه لالتفات الأذهان إلى شتى الموضوعات ومتنوع المباحث، والحذر عليه من الانتكاس لجراءة الأدعياء والفضوليين عليه، وتسلل الأقلام المغموزة والمآرب المتهمة إلى حظيرته. وكتابنا هذا مقصود به مجازة ذلك الأمل، وتوقي تلك العلل، وهو كتاب يتم في عشرة أجزاء، موضوعه الأدب عامة، ووجهته الإبانة عن المذهب الجيد في الشعر والنقد والكتابة، وقد سمع الناس كثيرًا عن هذا المذهب في بضع السنوات الأخيرة، ورأوا بعض آثاره، وتهيأت الأذهان الفتية المتهذبة لفهمه، والتسليم بالعيوب التي تؤخذ على شعراء الجيل الماضي، وكتابه، ومن سبقهم من المقلدين".

وأردفوا يقولون: " وأقرب ما تميز به مذهبنا أنه مذهب إنساني مصري عربي، إنساني؛ لأنه من ناحية يترجم عن طبع الإنسان خالصًا من تفكير الصناعة المشوهة؛ ولأنه من ناحية أخرى ثمرة لقاح القرائح الإنسانية عامة، ومظهر الوجدان المشترك بين النفوس قاطبة ومصري؛ لأن دعاته مصريون تؤثر فيهم الحياة المصرية، وعربي؛ لأن لغته العربية، فهو بهذه المثابة أتم نهضة أدبية ظهرت في لغة العرب منذ وجدت، إذ لم يكن أدبنا الموروث في أعم مظاهره، إلا عربيًّا بحتًا يدير بصره إلى عصر الجاهلية. وقد مضى التاريخ بسرعة لا تتبدل، وقضى أن تحطم كل عقيدة أصنامًا عبدت قبلها، وربما كان نقد ما ليس صحيحًا أوجب وأيسر من وضع قسطاس الصحيح، وتعريفه في جميع حالاته؛ فلهذا اخترنا أن نقدم تحطيم الأصنام الباقية على تفصيل المبادئ الحديثة، ووقفنا الأجزاء الأولى على هذا الغرض، وسنرد فيها بنماذج للأدب الراجح من كل لغة، وقواعد تكون كالمسبار وكالميزان لأقدارها، فإن أصبنا الهدف وإلا فلا أسف، وحسبنا بهذه المقدمة الوجيزة بيانًا".

والإشارة إلى تحطيم الأصنام تعكسها أعمال العقاد في نقده لشوقي في هذا الكتاب، وفي نقد المازني لحافظ وللمنفلوطي أيضًا، فهم أرادوا أن يحطموا رموز المحافظين، الذين انصرف إليهم إعجاب جمهور الأدب في ذلك الوقت وأرادوا أن يبينوا ما في أدب المحافظين من العيوب، والخلل من وجهة نظرهم هم وبدأوا يقدمون هذا النقد التطبيقي، الذي اشتمل عليه كتاب (الديوان).

نموذج من نقد العقاد لشوقي في "الديوان":

أ-تعداد العيوب: كان العقاد في نقده يشير إلى منزلة القصيدة في رأي أنصار شوقي؛ فهو في هذا الموضع يبدأ كلامه فيقول: "قال قائل من سماسرة شوقي: ما ترى في رثائه لمصطفى كامل؟ أتنتقده؟ قلت: وماذا عساي أن أنتقد إن لم أنتقد الهراء والزيف والشتات؟! قال: إن القصيدة آيته؛ قلت: لقد هديتني -هداك

الله- فما كنت أظنها آية لأحد من العالمين، وما حسبتها إلا زلة أسقطته فيها مغالبة الشجون لخاطره أو داهية خانه فيها إمكانه الذي ما فتئ يخونه؛ كما قال منها:

ماذا دهاني يوم بنت فعقني فيك القريض وخانني إمكاني

وما دهاه إلا العجز والفهاهة والحرج...".

وأخذ يعدد عيوب الشعر عند شوقي وغيره من المحافظين فقال: "فالعيوب المعنوية التي يكثر وقوع شوقي وأضرابه فيها عديدة مختلفة الشيات والمداخل؛ ولكن أشهرها وأقربها إلى الظهور وأجمعها لأغلاطهم عيوب أربعة: التفكك، والإحالة، والتقليد، والولوع بالأعراض دون الجواهر؛ وهذه العيوب هي التي صيرتهم أبعد عن الشعر الحقيقي الرفيع المترجم عن النفس الإنسانية في أصدق علاقاتها بالطبيعة والحياة والخلود من الزنجي عن المدنية ومن صور الأبسطة والسجاجيد عن نفائس الصور الفنية"، والملاحظ أن هذه العيوب يقع فيها شوقي وكل جيل المحافظين من الشعراء والكتاب:

1-**التفكك**: وعرف التفكك بأنه أن تكون القصيدة مجموع مبددًا من أبيات متفرقة، لا تؤلف بينها وحدة غير الوزن والقافية، وليست هذه بالوحدة المعنوية الصحيحة؛ إذ كانت القصائد ذات الأوزان والقوافي المتشابهة أكبر من أن تحصى؛ فإذا اعتبرنا التشابه في الأعاريض وأحرف القافية وحدة معنوية؛ جاز إذن أن ننقل البيت من قصيدة إلى مثلها دون أن يخل ذلك بالمعنى أو الموضوع.

فالقصيدة عند العقاد "ينبغي أن تكون عملًا فنيًّا تامًّا يكمن فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة كما يكمل التمثال بأعضائه والصورة بأجزائها واللحن الموسيقي بأنغامه؛ بحيث إذا اختلف الوضع أو تغيرت النسبة أخل ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها؛ فالقصيدة الشعرية كالجسم الحي يقوم كل قسم منها مقام جهازٍ من أجهزته ولا يغني عنه غيره في موضعه إلا كما تغني الأذن عن العين أو القدم عن الكف أو القلب عن المعدة، أو هي كالبيت المقسم لكل حجرة منه مكانها وفائدتها وهندستها، ولا قوام لفن بغير ذلك حتى فنون الهمج المتأبدين؛ فإنك تراهم يلائمون بين ألوان الخرز وأقداره في تنسيق عقودهم وحليهم؛ ولا ينظمونه جزافًا إلا حيث تنزل بهم عماية وحشية إلى حضيضها الأدنى، وليس دون ذلك غاية في الجهالة ودمامة في الفطرة، ومتى طلبت هذه الوحدة المعنوية في الشعر فلم تجدها فاعلم أنه ألفاظ لا تنطوي على خاطر مضطرب أو شعور كامل الحياة؛ بل هو كأمشاج الجنين المخدج بعضها شبيه ببعض أو كأجزاء الخلايا الحيوية الدنيئة لا يتميز لها عضو ولا تنقسم فيها وظائف وأجهزة؛ وكلما استفل الشيء في مرتبة الخلق صعب التمييز بين أجزائه؛ فالجماد كل ذرة منه شبيهه بأخواتها في اللون والتركيب صالحة لأنْ تحل في أي مكان من البنية التي هي فيها؛ فإذا ارتقيت إلى النبات ألفيت للورق شكلًا خلاف شكل الجذوع وللألياف وظيفة غير وظيفة النوار؛ وهكذا حتى يبلغ التباين أتمه في أشرف

المخلوقات وأحسنها تركيبًا وتقويمًا، وهي سنة تتمشى في أجناس الناس كما تتمشى في أنواع المخلوقات، ومصداق ذلك ما نشاهده من تقارب الأقوام المتأخرة في السحنة والملامح؛ حتى لا تكاد تشتبه وجوههم جميعًا على الناظر، وهي حقيقة فطنت إليها قبائل البدو بالبداهة".

وبهذا البيان والشرح وضح العقاد ما يريده من الوحدة المعنوية في القصيدة وهي الوحدة التي شاع تسميتها بعد ذلك بالوحدة العضوية، وهو يرى أن هذه الوحدة مفتقدة تمامًا في شعر شوقي وأضرابه، وأن قصيدة شوقي التي سيطبق عليها هذا المقياس: وهي قصيدته في رثاء مصطفى كامل والتي مطلعها:

المشرقان عليك ينتحبان قاصيهما في مأتم والداني

هي: "كومة الرمل التي يسميها شوقي قصيدة في رثاء مصطفى كامل، نسأل من يشاء أن يضعها على أي وضع؛ فهل يراها تعود إلا كومة رمل كما كانت؟! وهل فيها من البناء إلا أحقاف خلت من هندسة تختل ومن مزايا تنتسخ ومن بناء ينقض ومن روح سارية ينقطع اطرادها أو يختلف مجراها؟!...".

فالقصيدة يمكن أن نأتي بها على ترتيب صاحبها، ثم نعيدها على ترتيب آخر يبتعد بها عن الترتيب الأول؛ ليقرأها القارئ المرتاب ويلمس الفرق بين ما يصح أن يسمى قصيدة من الشعر وبين أبيات مشتتة لا روح لها ولا سياق ولا شعور ينتظمها ويؤلف بينها.

فالقصيدة كما رتبها شوقي هي:

المشرقان عليك ينتحبان قاصيهما في مأتم والداني
يا خادم الإسلام أجر مجاهد في الله من خلد ومن رضوان
لما نُعيت إلى الحجاز مشى الأسى في الزائرين وروّع الحرمان
السكة الكبرى حيال رباهما منكوسة الأعلام والقضبان
لم تأْلُها عند الشدائد خدمة في الله والمختار والسلطان
يا ليت مكة والمدينة فازتا في المحفلين بصوتك الرنان
ليرى الأواخر يوم ذاك ويسمعوا ما غاب عن قس وعن سحبان
جارَ التراب وأنت أكرم راحل ماذا لقيت من الوجود الفاني
أبكي صباك ولا أعاتب من جنى هذا عليك كرامة للجاني
يتساءلون أبسلاسل قضيت أم بالقلب أم هل مت بالسرطان
الله يشهد أنك موتك بالحجى والجد والإقدام والعرفان
إن كان للأخلاق ركن قائم في هذه الدنيا فأنت الباني

ويعيد العقاد ترتيب هذه القصيدة ويبعثر أبياتها لدرجة أن ختام القصيدة عند شوقي هو:

علمت شبان المدائن والقرى كيف الحياة تكون في الشبان

مصر الأسيفة ريفها وصعيدها قبر أبر على عظامك حانِ

أقسمت أنك في التراب طهارة ملك يهاب سائله الملكان

وعند العقاد، بعد تغيير ترتيبها هو:

للمرء في الدنيا وجل شئونها ما شاء من ربح ومن خسران

الناس غاد في الشقاء ورائح يشقى له الرحماء وهو الهاني

فاصبر على نعم الحياة وبؤسها نعمى الحياة وبؤسها سيان

ويعلق العقاد على النتيجة بالقول: "فانظر أيها القارئ إلى هذه المرثاة؛ هل ترى بينها وبين سابقتها من تفاوت؟!"

ومن ثم لم تبق إلا الوحدة التي تعقدها الضمائر وحروف العطف وهي وحدة هشة غير متينة: "ولو أننا غيرنا بعض الضمائر التي تعلق الاسم على الاسم ولا رابطة بينهما، وصححنا حروف العطف التي تصل الجملة بالجملة ولا تناسب بين معناهما، لم يكد يجتمع بيت من القصيدة على بيت؛ وإنما ينحل انحلال هذه القصيدة من سؤال القارئ نفسه هل قرأ في الشعر أشد تفككًا منها؟! فعلى حسب الجواب يكون حكمه على مصدرها من قريحة شوقي؛ وهل هي نبعت من شعور فياض يتدفق على موضوعه فيغمره كما يغمر السيل الوهاد والنجاد، أو تقطرت من عقل ناضب ينضب بالقطرة بعد القطرة بخلع الضرس وبخلع النفس؛ فتأتي كالرشاش لا يتولد منه إلا الوحل واليبس".

فتفكك القصيدة في شعر شوقي أو غيره من المحافظين يكون في غياب الوحدة الفنية ويكون البيت فيها مخاصمًا من الناحية المعنوية للبيت الذي يليه ومن البيت الذي قبله؛ فليس هناك رابطة معنوية تجعل أبيات القصيدة تتلاحم ولا تجعل أجزاءها تنسجم.

موقف الناقد محمد مندور من هذا المقياس: رد بعض النقاد على العقاد فيما ذهب إليه من وجوب توافر ما يسمى بالوحدة العضوية في القصيدة: أي بناء القصيدة بناءً هندسيًّا بحيث تخرج من بين يدي الشاعر كالكائن العضوي الذي لا يمكن نقل جزء منه مكان جزء آخر؛ فيقول الدكتور محمد مندور: وهي دعوة سليمة من ناحية الفلسفة الجمالية؛ ولكنها لا تكاد تتصور في الشعر الغنائي الخالص الذي يقوم على تداعي المشاعر والخواطر في غير نسق وضعي محدد؛ وإنما نتصور هذه الوحدة العضوية في القصائد ذات الموضوع الذي له بدء ووسط ونهاية على نحو ما نشاهد اليوم في عدد من قصائد الشعراء الشبان المعروفين بالشعراء الواقعيين؛ حيث يتخذ كل منهم موضوعًا لقصيدته قصة قصيرة أو دراما سريعة يعالج بها إحدى مشاكل عصره أو مجتمعه، ومن ثم فقد تعسف العقاد حين اعتبر أن القصيدة السليمة البناء المتمتعة بالوحدة لا يمكن تقديم بيت منها على غيره. واعتباره قصيدة مثل رثاء شوقي لمصطفى

كامل بأنها مفككة البناء لمجرد أنه استطاع إعادة ترتيب أبياتها على نحو جديد دون أن يبدو عليها التخريب.

فمحمد مندور يرى أنه من الصعب تحقق مقياس الوحدة في الشعر الغنائي الذي منه شعر شوقي وغيره من المحافظين في الرثاء والغزل والوصف والمدح وغير ذلك، وأن هذه الوحدة يمكن أن تتحقق فيما يسمى بالشعر القصصي أو الدراما الشعرية.

2- الإحالة: وعرف الإحالة بأنها فساد المعنى، وهي ضروب؛ فمنها الاعتساف والشطط، ومنها المبالغة ومخالفة الحقائق، ومنها الخروج بالفكر عن المعقول أو قلة جدواه وخلو مغزاه، وشواهدها كثيرة في هذه القصيدة؛ فمن ذلك قول شوقي:

السكة الكبرى حيال رباهما منكوسة الأعلام والقضبان

يقول العقاد: "وقضبان السكك الحديدية لا تنكس؛ لأنها لا تقام على أرجل؛ وإنما تطرح على الأرض كما يعلم شوقي؛ اللهم إلا إذا ظن أنها أعمدة تلغراف على أنها لو كانت مما يقف أو ينكس لما كان في المعنى طائل؛ إذ ما غَناء قول القائل في رثاء العظماء إلا الجدران أو العمد مثلًا نكست رؤوسها لأجله؟!".

ومنها قوله:

إن كان للأخلاق ركن قائم في هذه الدنيا فأنت الباني

يقول العقاد: "هذا بيت لو جرى المدح والرثاء كله على سننه وانتظم النطق والأداء أجمعه على طريقته ونمطه لما فهم الناس من الكلام شيئًا، ولما كان على من يؤتى هذه المقدرة من المنطق ضير ولا خسارة من قطع لسانه، وتتبع العقاد الأبيات التي رأى فيها إحالة أو فسادًا في المعنى أو مبالغة لا تصح؛ حتى وصل إلى قول شوقي:

مصر الأسيفة ريفها وصعيدها قبر أبر على عظامك حاني"

فقال: "مصر أيها القارئ ولا تخطئ؛ فتحسبها القاهرة المعزية فإنها مصر بريفها وصعيدها مصر؛ كلها ما هي إلا قبر واحد؟! فلله در شاعرها يرثي رجل أحيى نهضة بلاده فيجعلها قبر -ولا ضرورة- وليدل على ماذا؟ لا شيء".

وكذلك قوله:

مصر الأسيفة ريفها وصعيدها قبر أبر على عظامك حانِي

ففيه مبالغة أن مصر كلها حزنت من أجل مصطفى كامل، وأن ذكرى هذا المناضل العظيم ستكون موجودة في كل مكان في مصر.

وهنا رد محمد مندور أيضًا على العقاد بأنه قال: أي تعسف بعد هذا –عن نقد العقاد لهذا البيت؟ وماذا كان ممكن أن يقول الأستاذ العقاد لو سمع خطيب اليونان الأكبر بركليس وهو يقول: أن الأرض كلها مقبرة للعظماء –بمعنى: أن الرجل العظيم لا يرقد في بقعة من الأرض؛ بل تستقر ذكراه في نفوس جميع البشر بشتى بقاع العالم، وهل تراه يتهمه بالسخف والإحالة؟!.

3– التقليد:

وقال العقاد عنه: أما التقليد فأظهره تكرار المؤلف من القوالب اللفظية والمعاني وأيسره على المقلِّد لاقتباس المقلَّد والسرقة، وأعز أبيات هذه المرثاة على المعجبين بها مسروقة مطروقة؛ فهذا البيت:

فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها فالذكر للإنسان عمر ثاني

مقتضب من بيت المتنبي:

ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته ما فاته وفضول العيش أشغال

وهذا البيت:

والخلق حولك خاشعون كعهدهم إذ ينصتون لخطبة وبيان

شوه فيه معنى أبي الحسن الأنباري فوق تشويهه، وذاك حين يقول في رثاء الوزير أبي طاهر الذي صلبه عضد الدولة:

كأنك قائم فيهم خطيبا وكلهم قيام للصلاة

يقول العقاد: ونقول شوهه؛ لأن الخطيب لا يخطب الناس وهم سائرون به؛ وإنما يفعل ذلك اللاعبون في المعارض المتنقلة.

وقوله:

أو كان يحمل في الجوانح ميت حملوك في الأسماع والأجفان

مأخوذ من بيت ابن النبيه في قصيدته التي لم تبقى صحيفة لم تستشهد بمطلعها:

الناس للموت كخيل اطراد فالسابق السابق منها الجواد

والبيت هو:

دفنت في التراب ولو أنصفوا ما كنت إلا في صميم الفؤاد

ثم يقول: على أن المعنى مرذول، بلغ من ابتذاله وسخفه أن تنظمه عوالم الأفراح في أغانيها، وحسب الشاعر ألا يكون أبلغ ولا أرفع من القائلات: "أحطك في عيني يا سيدي وأتكحَّل عليك" وأنه لا يقول كما قلت:

لو أن لي علم ما في غدي خبأتك في مقلتي من حذر

ومضى العقاد في تتبعه لشوقي ورد معانيه إلى الشعراء السابقين.

والحق أن ذلك أيضًا لا يخلو من تعسف؛ لأن المعاني في أغلب الأحيان يأخذ الشعراء بعضها من سابقيهم ويحسب للشاعر أنه يعيد عرض المعنى في معرض جديد أو في تعبير أخاذ، والمعاني المبتكرة التي لم يُسبق فيها الشاعر في كل العصور قليلة ونادرة، ولا يمكن أن يجرد الشاعر من الفضيلة لأنه استفاد من معنى شاعر سابق عليه؛ فالشعراء السابقين في كل العصور يرددون معاني سُبقوا إليها.

4- الولع بالأعراض دون الجواهر: ويقول العقاد إن "التفطن إلى هذا الضرب من العبث عسير على من لا يدركه بالبداهة كما يعسر على الأطفال إدراك رزانة الرجال؛ انظر أيها القارئ إلى هذا البيت:

دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثواني

فإنه بيت القصيد في رأي عشاق شوقي؛ فعلى أيِّ معنًى تراه يشتمل؟! معناه: أن السنة أو مائة السنة التي قد يعيشها الإنسان مؤلفة من دقائق وثوانٍ، وهذا هو جوهر البيت؛ فهل إذا قال قائل: إن اليوم أربع وعشرون سنة والساعة ستون دقيقة يكون في عرف قراء شوقي قد أتى بالحكمة الرائعة؟! ولكنهم يقولون لك: إنه قرن بين دقات القلب ودقات الساعة، وهذه هي البراعة التي تعجبنا وبها هدانا إلى واجب الضن بالحياة، وهنا يبدو للنظر في قصر المسافة التي يذهبون إليها في إعجابهم، وأن بلاغتهم المزورة لا تتعلق بالحقائق الجوهرية والمعاني النفسية؛ بل بمشابهات الحس العارضة؛ وإلا فلو قورن بين الساعة والقلب أيام كان يقاس الوقت بالساعات المائية أو الرملية؛ فهل يفهم لهذه المقارنة معنى؟! وهل لدقات القلب الخالدة علاقة حقيقية بدقات الدقائق والثواني يستنبط منها الإنسان سر الحياة؟!".

ويعلق ساخرا: "أبهذه العوارض يقدر الأحياء نفاسة حياتهم؟! وهل يتوقف المعنى الذي ينظم في الحياة الإنسانية على علاقة سطحية باختراع طارئ؟! ولقد قلنا في نقدنا للرثاء الفريد: إن الحقائق الخالدة لا تتعلق بلفظ أو لغة؛ لأنها حقائق إنسانية بأسرها قديمها وحديثها عربيها وأعجميها، ونعيد هذه الكلمة هنا ونزيد عليها أن الحقائق الخالدة لا تتعلق بفترة محدودة ولا تقوم على مشابهة زائلة؛ فليذكر ذلك قراء الجيل الغابر وليتدبروه، ويقولون: أن أحدهم لو سمع ناصحًا يعظه في موقف جد -وأي موقف جد أجد من رثاء النابغين؟!- فيناديه: يا أخي، صن وقتك؛ لأن قلبك ينبض كما تنبض الساعة؛ لأغرق في الضحك ولخطر له أن صاحبه يخامره الشك في عقله؛ ولكنه حين يسمع هذا الكلام شعرًا ويكبر قائله؛ وما ذاك إلا لحسبانه أن الهزل جائز في الشعر فكاهة وحكمة، ولو علم أن الشعر جد كجد الحياة لما تمثل بما حقه أن يضحك منه ويلهو به".

نقد العقاد لشعر الحكمة عند شوقي

ولا يريد أن يترك العقاد لشوقي شيئًا في قصيدته أو في شعره يعتد به، فيذهب إلى الكلام عن الحكمة ويقول: ولا ندع هذه القصيدة التي ملأها شوقي بما يسميه حكمة وبما يتسامى به إلى مضاهاة المتنبي ومضارعة المعري قبل أن نكشف عن غشاوة يُخدَع من قبلها كثير من قراء الشعر الذين يؤْمل صلاحهم واقتناعهم.

ثم يفصل القول في الحكمة فيقول: فالحكمة في الكلام ضربان:

- **الحكمة الصادقة:** وهي من أصعب الشعر مرامًا وأبعده مُرتقى، لا يساس قيادها لغير طائفة من الناس، تُوحى إليهم الحقائق من أعماق الطبيعة فتجري بها ألسنتهم آياتٍ تنفح ببلاغة النبوة وصدق التنزيل، ويلقي أحدهم بالكلمة العابرة من عفو خاطره ومعين وجدانه فكأنما هي فصل الخطاب ومفرق الشبهات، تستوعب في أحرف معدودات ما لا تزيده الأسفار الضافية إلا شرحًا وامتدادًا؛ وتسمعها فتشع في ذهنك ضيائها وتريك كيف يتقابل العمق والبساطة ويأتلف القدم والجدة؛ قدم الحقيقة كأثبت ما تجلوها الحياة المتقلبة وحدة النظر الثاقب والنفس الحية التي تطبع كل مرئي بطابعها، هي تاره تلُم لك شعث الحقيقة فتحسبها مجموعة كذلك منذ الأزل لم تتفرق ولا يكون لها أن تتفرق؛ كبيتي المتنبي اللذين يعدد فيهما من تصفو لهم الحياة وهما:

تصفو الحياة لجاهل أو غافلًا عن ما مضى منها وما يتوقع

ولمن يغالط في الحقائق نفسه ويسومها طلب المحالف تطمع

فالجاهل من لا يعي والغافل من يعي لو شاء ولكنه لا ينتبه، والمغالط نفسه واعٍ منتبه يحجب بيديه ما تبصره عيناه. وهؤلاء هم الذين يغنمون من الحياة صفوها على قدر حظهم الذي قسمه من الشعور بها، ومهما يجهد الجاهد فلن يجد إنسان غير هؤلاء تصفو له الحياة على حال؛ ولن يحذف من عبارة البيتين كلمه إلا نقص بقدره من المعنى.

-**والحكمة المبتذلة:** أو المغشوشة المعتملة، وأشرفها ما كان من قبيل تحصيل الحاصل، وكلها لا فضل فيها لقائل على قائل ولا لسابق على ناقل؛ إذا قارنا بينها وبين الحكمة من ذلك الطراز كانت كمن يحفر الآبار للناس على شاطئ النهر الغزير، وكانت تلك كمن ينبط الماء من ينابيعه الصلدة لمن لوحهم الصدى والهجير، وأحمق ممن يحفر البئر على شاطئ النهر، من يروح ويغدو ينظم من أشباه البديهيات تلك النصائح الفاشية التي حفلت بها كتب التمرينات الابتدائية؛ كالعلم نافع، والصدق منجٍ، والبركة في البكور، وباحترام الأستاذ تتقدم، وفي العجلة الندامة وفي التأني السلامة، وما إلى هذه النصائح والأمثال والحكم ينظمها ليشتهر بالحكمة وليصيح من فوقها:

لي دولة الشعر دون العصر وائلة مفاخير حكمي فيها وأمثالي

فهل يدري القائل من صاحب الحكم والأمثال الفخور؟! إنه هو شوقي، ثم هل يدري ما حكمه وأمثاله التي استتبت له بها دولة الشعر؟! هذه هي: ويذكر العقاد عددًا من الأبيات التي تعد من الحكمة في شعر شوقي؛ كقوله:

فلما أرَ غير حكم الله حكم ولم أرَ دون باب الله باب

وقوله:

ومن العقول جداول وجلامد ومن النفوس حرائر وإماء

وقوله:

وكل مسافر سيئوب يوما إذا رزق السلامة والأيابَا

ويعلق ساخرًا فيقول: هل علم أحد أن المسافر إذا آب فقد آب قبل أن يقول شوقي:

وكل مسافر سيؤوب يوما إذا رزق السلامة والإيابَا

أم علموا الحق حتى أخبرهم به مستغربًا جهلهم سائلًا أياه:

أليس الحق أن العيش فانٍ وأن الحي غايته الممات

أليس كذلك أم ماذا بالله؟!.

وينتهي العقاد من الكلام عن الحكمة في شعر شوقي بقوله: وصفوة القول أن الحكمة المبتذلة أيسر ما يتعاطاه النظامون؛ لأنها صوغ متاع مشاع، على حين أنهم لا يمسون الحكمة العالية مساسًا ولن يقاربوها ولا اختلاسًا؛ لأنهم لا يملكون جوهرها ولا يقدرونه لو وقع لهم، ولن يحسنوا مضاهاته وإن اغتروا ببساطته وسهولته، وربما خدع بعض الناس في بعض أقوالهم فخانوها من قبيل الحكمة العالية لما يبهرهم من رنين صياغتها وبريق طلائها؛ فليعلم هؤلاء المحسنون الظن بحكمة النظامين أن أرقى ما يرتقون إليه أن يأتوا بكلمة مقبولة في شئون المعيشة، وفرق بعيد وبون شاسع بين المعرفة المعيشية والمعرفة الحيوية.

ولا يترك العقاد شيئًا لشوقي؛ حتى بعض الأبيات التي حفظها الناس كقوله:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وقوله:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن تولوا مضوا في إثرها قدما

وكذلك قوله:

وليس بعامرٍ بنيانُ قوم إذا أخلاقهم كانت خرابا

فيقول العقاد عنها وعن ما يشبهها: فليس يقول لك ما يستحق أن تصغي إليه من يخبرك بأن الأخلاق الصالحة ملاك الصلاح الاجتماعي وقوام الأمم، ومن كان يقرر معنًى يعكس فيكون عكسه ظاهر البطلان، ويطَّرد فلا يزيد على ما هو متعارف؛ فإنما يقرر البديهيات ويدخل فيما نسميه بالحقائق الرياضية أو حقائق التمرينات الأولية...

هذه صور من نقد العقاد لشوقي في كتاب (الديوان) قدمتها لك، وهي تدلك على عقل العقاد وذكائه ونقده، وتدلك على ما كان يريده من المذهب الجديد في الشعر، ويدلك أيضًا على أن النقد لم يكن كله حقًّا، وإنما كان فيه كثير من التعسف والظلم.